

السلطان الناصر محمد بن قلاوون وعمارة بيت المقدس

Sultan Al-Nasir Muhammad bin Qalawun and the Building of Jerusalem

د. هنادي زعل مسعود الهنداوي

وزارة التربية والتعليم (الاردن)

hanadi.hindawi@yahoo.com

تاريخ القبول: 2021/09./24

تاريخ الاستلام: 2021./09./19

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى التعرف على دور وجهود السلطان الناصر محمد بن قلاوون في عمارة بيت المقدس وقبة الصخرة المشرفة، فقد حظيت مدينة القدس، وما تزال، بمكانة عظيمة في التاريخ الإنساني، وتميزت بخصوصية الزمان والمكان، واحتلت عبر التاريخ الإسلامي مكانة مميزة في قلوب المسلمين، فهي مدينة الأنبياء الذين جاء الإسلام فيها مصدقاً لرسالاتهم، وهي الأرض التي باركها الله تعالى، وهي أولى القبلتين وفيها ثالث الحرمين. تم استخدام منهجية البحث التاريخي من خلال تحديد عنوان البحث وموضوعاته الفرعية، وتحديد مصادر ومراجع البحث والدراسات السابقة، ومن ثم فحص المعلومات والبيانات ونقدها وتحليلها ومناقشتها وتفسيرها بما يخدم البحث، وبعد ذلك تبويب المعلومات والتوصل إلى العديد من النتائج، من أهمها، أن القدس شهدت حركة عمرانية واسعة نتيجة لاهتمام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالبناء والأعمار، والقيام بالعديد من الإصلاحات والترميمات في الأماكن الدينية، لذا على المتخصصين والباحثين دراسة الحياة بمختلف جوانبها في القدس في عهود مختلفة، وخاصة العهد العثماني، الذي شهد بداية الأطماع الاستعمارية فيها.

الكلمات المفتاحية: المماليك، بيت المقدس، الملك الناصر محمد بن قلاوون، العمارة.

Abstract:

This research aims to identify the role and efforts of Sultan Al-Nasir Muhammad bin Qalawun in the architecture of Jerusalem and the Dome of the Rock. It is the city of the prophets in which Islam came confirming their messages, and it is the land that God Almighty has blessed, and it is the first of the two qiblah and in it is the third of the two sanctuaries. The historical research methodology was used by defining the title of the research and its sub-topics, identifying the sources and references of the research and previous studies, and then examining, critiquing, analyzing, discussing, and interpreting information and data to serve the research, and then tabulating the information and reaching many results. Among the most important of them, that Jerusalem witnessed a wide urban movement as a result of Sultan Al-Nasir Muhammad bin Qalawun's interest in building and reconstruction, and carrying out many reforms and restorations in religious places, so specialists and researchers should study life in its various aspects in Jerusalem in different eras, especially the Ottoman era, which witnessed the beginning of ambitions colonialism in it.

Keywords : Mamluks, Bait Al-Maqdis, King Al-Nasir Muhammad bin Qalawun, architecture.

The care

1. المقدمة:

تمتع مدينة القدس بمكانة عظيمة في نفوس الأمة الإسلامية، لما لها من أهمية عقائدية ، وحضارية ، وتاريخية؛ فقد أولى المسلمون المدينة اهتماماً كبيراً منذ أن فُتحت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، فنشطت الحياة بمختلف مناحيها ، وازدهرت حضارتها، حتى أصبحت رمزاً يعبر عن حضارة وأصالة الأمة الإسلامية عامة، والشعب الفلسطيني على وجه الخصوص . مرت مدينة القدس عبر تاريخها الطويل بمحطات مفصلية، من تلك المحطات الاحتلال الصليبي عام (489هـ / 1099م)، الذي دمر الحياة في المدينة بمختلف أشكالها وأنواعها؛ ففي عهده أصبحت المدينة خراباً بعدما كانت عامرة، وغدت مقبرة للعلماء بعدما كانت مهذاً لهم، فأطفأ الصليبيون نور العلم والفكر والمعرفة في المدينة بعد أن كانت مقصداً للعلماء ومنازة للفكر.

وفي العهد المملوكي (648 - 922هـ / 1250-1516م) ونتيجة لاستقرار الأوضاع السياسية، وتصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام، نشطت الحياة بمختلف أشكالها، بلغت مبلغاً عظيماً من الحضارة و العمارة و الفكر و الثقافة، فأصبحت أولى حواضر العالم الإسلامي ، فقد عمل سلاطين المماليك على تشجيع الحركة الفكرية و الثقافية، و الإنفاق عليها ، وتشديد المؤسسات المختلفة، التي لا زال بعضها قائماً حتى يومنا هذا؛ مما ترك آثاراً عظيمة في ازدهار الحركة الفكرية و الثقافية، التي نشطت بشكل واضح في المدينة في تلك الفترة، وأصبحت المؤسسات التعليمية المختلفة عامرة بالعلم وأهله من العلماء و المتعلمين، وتنوعت العلوم، وغدت المدينة مقصداً للعلماء وطلبة العلم، الذين وفدوا إليها من المشرق و المغرب . و يمكن القول أن النضج الفكري و الثقافي لمدينة القدس قد بلغ كماله في العهد المملوكي.

2. المماليك وبيت المقدس:

1.2 لمحة تاريخية عن المماليك وأصولهم :

يعود المماليك بأصولهم إلى الجنس التركي، وتم جلبهم كرفيق أبيض، كما يُعتقد، من بلاد الخزر والقوقاز وسواحل البحر الأسود، وذلك بعد أن اضطر الحكام الأيوبيون، نظراً للصراعات الداخلية التي دارت فيما بينهم بعد رحيل صلاح الدين، والتهديدات الخارجية التي واجهوها وبخاصة من الفرنجة، إلى زيادة عدد أفراد جيوشهم. وقد اشتهر الملك الصالح أيوب (637-647هـ / 1240-1249م) بالإكثار من شراء المماليك الأتراك، وقام " ببناء قلعة خاصة لهم وسط جزيرة الروضة أسكنهم فيها واتخذها مقراً لملكه. ومن هنا عُرف أوائل المماليك باسم المماليك البحرية". وبعد أن تعززت مواقع الجند المماليك العسكرية طمحووا إلى استلام السلطة، " حيث تمرد بعضهم على أسيادهم، وسعى بعضهم الآخر إلى التحكم بهم أو وراثتهم ". (زكار، 1990م، ص 537)

وقد استمر المماليك البحرية سلاطين على مصر والشام حتى سنة (784 هـ)، وكان من أشهر سلاطينهم المظفر طغر، والظاهر بيبرس، وقلاوون الصالح، وابنه الأشرف خليل. ثم سيطر على الحكم " المماليك الجراكسة "، وهم " الذين اشتراهم السلطان قلاوون الصالح ووضعه في القلعة (قلعة صلاح الدين)، ولذلك سموا بـ "البرجية"، واستمروا في حكم مصر والشام إلى سنة (922-

923هـ/1516-1517 م)، وكان من أشهر سلاطينهم الظاهر برقوق، والأشرف قانصوه الغوري، وكان آخرهم السلطان الغوري وطومان باي، وهما اللذان انتصر عليهما السلطان العثماني سليم الأول. (العروسي، 1982م، ص 124-125)

2.2 الأوضاع العمرانية والثقافية في القدس في عصر المماليك :

يعد العصر المملوكي العصر الذهبي للقدس، و من أبهى مراحلها التاريخية، فقد ازدهرت المدينة المقدسية فيه ازدهاراً كبيراً، وازداد سكّانها، وازدهرت الحركة العلمية في المدينة، وانتشرت المدارس والقباب والمصاطب التعليمية في كل مكان، وساد رخاء المدينة بشكل عام. وشهدت فلسطين خلال حكم المماليك نهضة عمرانية وحركة ثقافية مزدهرة، تجلت في مشاريع ومؤسسات اجتماعية متنوعة، هدفها توفير المتطلبات اليومية وتحسين أوضاع الناس في المدينة.

أحبّ المماليك القدس وأعطوها من وقتهم وجهدهم الكثير، والمدينة التي نراها في أيامنا الحالية معظمها يعود للعصر المملوكي، كما أن الفنون المملوكية في الزخرفة والبناء في المدينة وفي المسجد الأقصى المبارك، وخاصة في قبة الصخرة المشرفة كانت من أجمل ما مرّ على المدينة المقدسة.

ساهم نواب السلاطين في النيابات، إلى جانب سلاطين دولة المماليك، في حركة النهضة العمرانية والثقافية التي شهدتها فلسطين، وبخاصة نيابة القدس. فقد نشأت أغلبية المدارس التي عرفتها المدن الفلسطينية في إبان العهد المملوكي، ولم يكن هناك سوى " عدد محدود فقط، لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، يرجع إلى العهد الأيوبي "، واشتملت كل المدن الفلسطينية على مستشفى واحد على الأقل في الحقة المملوكية، وكانت هذه المستشفيات " توفر الخدمات الصحية والعلاجية المجانية للناس جميعاً، للغني والفقير ". كما كان توفير مياه الشرب للمدن " في أعلى سلم أولويات سلاطين المماليك "، الذين أبدوا اهتماماً خاصاً كذلك ببناء الحمامات العامة، والخانات، التي كانت تقام في المدن الكبرى ووسط الأسواق وتسمّى أحياناً باسم " الفندق أو الوكالة أو القيسارية "، والتي بلغ عددها " 11 خاناً كانت قائمة على مفاصل الطريق السلطاني بين مصر والشام "، كما اهتموا بإقامة الجسور والقناطر، كالجسور التي " أقيمت على نهر الأردن (الشريعة): جسر دامية، وجسر المجامع ". (خليل، 2001م، ص 408-440)

عاشت فلسطين عصرها الذهبي في مجالات الثقافة الإسلامية والتعليم أيام الحكم المملوكي. فقد وجد فيها عدد كبير من مؤسسات التعليم المتخصصة والعامة وعاش فيها عدد كبير من كبار العلماء، لكن معظمهم أقام في مدينة القدس. ونشطت الحركة الثقافية في المساجد والمدارس والزوايا والكتاتيب، وكانت موضوعات الدراسة والتدريس " في نطاق الثقافة الإسلامية لذلك العصر، وتمركزت حول العلوم الإسلامية واللغة والأدب والسيرة والتاريخ والتراجم، وعلم الكلام والمنطق، والحساب والجبر وعلوم الهيئة والميقات ". وكان الطلبة يلتحقون بالمدرسة التي يرغبون بها، ويقبلون على دراسة المادة التي يريدونها، وكان الطالب " يجاز عقب انتهائه من الدراسة بإجازة من شيخه الذي تولى تدريسه، وقد تكون الإجازة عامة أو مخصصة بفن من الفنون أو محددة برواية كتاب ما من الكتب ". (زكار، 1990م ص 605-606)

ومن أشهر مدارسها، التي أنشأت على أيدي السلاطين والأمراء والمحسنين مثل السلطان قايتباي (المدرسة الأشرفية سنة 1480م) وكذلك الأمير تنكر الناصري (المدرسة التنكزية سنة 1328م) والدوادار (المدرسة الدوادارية سنة 1295م) وآخرون...

ومن المثير القول بأن النساء قد ساهمن في هذه المرحلة بعملية إعمار القدس، فقد قامت الست سفرة خاتون ببناء المدرسة البارودية سنة 1367م، والسيدة أغل خاتون البغدادية ببناء المدرسة الخاتونية سنة 1380م، والسيدة أصفهان شاه خاتون ببناء المدرسة العثمانية سنة 1473م، هذا عدا عن أضرحة النساء وقصورهم. وغني عن القول بأن المباني المملوكية قد انتشرت في مختلف أنحاء المدينة، إلا أنها قد أحاطت بالحرم القدسي الشريف من جهتي الشمال والغرب، وامتدت على المحاور الأساسية التي تقود إليه، مثل طريق باب السلسلة، وطريق باب الحديد، وسوق القطنين، وطريق المجاهدين... الخ. (علي، 1970م)

لم تكن فلسطين خلال كل العصر المملوكي وحدة جيوسياسية واحدة، وإنما كانت مكونة من ثلاث وحدات إدارية مستقلة إدارياً بعضها عن بعض، تُعرف باسم "النيابات"، يدير شؤون كل وحدة منها أمير مملوكي يحمل لقب "النائب"، ويحظى بمكانة رفيعة وصلاحيات واسعة على كل صعيد. أما هذه النيابات فهي: نيابة صنف، ونيابة غزة، ونيابة القدس. وقد عبّر نظام النيابات عن توجه المماليك نحو المركزية التي حصرت صلاحيات الحكم وآليات الإدارة ومؤسساتها في يد السلطان". وكانت نيابة دمشق من أهم نيابات الشام كلها، فقد كانت "أشبه بالقاهرة عاصمة السلاطين المماليك، وفيها كل الوظائف القائمة في القلعة في القاهرة، وهو أمر لم يكن قائماً في أي من نيابات الشام الأخرى". (عثامنة، ص 1-2، 300-303)

نعم سكان نيابة القدس في العصر المملوكي بحياة استقرار، ساعدت على انتعاش نشاطهم الاقتصادية في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة والحرف. فقد وجد في القدس عدد كبير من الأسواق العامة والأسواق المتخصصة، وعدد من الخانات، ومن أهمها "خان السلطان وخان تنكر وخان الظاهر بيبرس وخان بني سعد"، وأقيم فيها عدد من الحمامات العامة، قصدتها الناس من مختلف الطبقات، رجالاً ونساءً، للاستحمام، ولم تقتصر وظيفة الحمام في ذلك العصر على مجرد الاستحمام بل امتدت إلى الحلاقة وإزالة الشعر من بعض مناطق الجسد، وكان مكاناً لتناقل الأخبار"، ومن أشهر تلك الحمامات "حمام الشفا وحمام العين، وقاما في سوق القطنين"، كما اهتمت السلطات المملوكية بتأمين السقايات العامة، فبنت ما عرف باسم "السبل" أو "الأسبل" أوقفت على كل سبيل عدداً من الأوقاف، ومن أشهرها "سبيل علاء الدين البصير قرب باب الجبس، وسبيل تنكر، وسبيل قايتباي". كما اهتمت بتوصيل الماء إلى المدينة عن طريق قناة العروب". ومن المنشآت الأخرى التي حظيت باهتمام سلاطين وأمراء المماليك في القدس المزارات، والتي غدت محط أنظار الكثيرين من أبناء الأديان السماوية الثلاثة. ففي مقدمة المزارات الإسلامية "الحرم الشريف الذي يشتمل على عدة أبنية دينية منها المسجد الأقصى ومسجد الصخرة، وقد استغل المماليك جزءاً كبيراً من ثرواتهم الضخمة في العناية بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة"، أما المزارات المسيحية فتأتي في مقدمتها "كنيسة القيامة، وكنيسة مار يعقوب المعروفة بدير الأرمن". (زكار، 1990، ص 598-604)

3. السلطان الناصر محمد بن قلاوون (684-741هـ/1285-1341م) نشأته وحياته :

هو السلطان محمد الأعظم، الملك الناصر، ابن السلطان الملك المنصور، سيف الدين الصالح، من أعظم ملوك الأتراك (الصفدي، 1418هـ، ص 73)، بدأ نجمه يلوح بعيد مقتل أخيه الأشرف خليل (ابن حبيب، 1976، ص 167)، حيث وقع الاتفاق أن يكون هو

السلطان، وذلك سنة (693هـ)، وكان عمره إذ ذاك ثمانين سنين وشهوراً (البوسفي، 1406هـ ص 22)، وكان قد استنابه أخوه الأشرف، وجعله ولي عهده، وحلف الناس على ذلك (الصفدي، 2000م، ص 76). "كان الناصر محمد بن قلاوون، السلطان العاشر في دولة المماليك البحرية، ولد يوم السبت، سادس عشر المحرم، سنة (684هـ)، بقلعة الجبل، ووالده الملك المنصور قلاوون، يحاصر حصن المرقب". (خريسات، 1428هـ، ص 4)

يعود نسب الناصر محمد إلى أسرة قلاوون، التي حكمت دولة المماليك أكثر من مئة عام، وهو مؤسس هذه الأسرة، تركي الأصل، ورد البلاد في أحسن جلبة. "ازدحمت عليه عند وصوله -وهو ابن أربع عشرة سنة - أرباب الرغبات وبذلت فيه الألوف من الذهب، فكان الألفي قاماً، والألفي قيمة، وأنه لأعلى وأعلى، وإن محله لأجل وأعلى". (العسقلاني، 1998م، ص 25)

ترجم له عدد من المؤرخين، المعاصرين له، أو ممن جاؤوا بعده، فظهرت صورته واضحة جلية في صفاته وأخلاقه وأعماله، إضافة إلى ظهورها في أدب ذلك العصر، شعره ونثره، ورسمت صورته الإيجابية والسلبية من خلال تأريخ الأحداث السياسية والاجتماعية في عصره، فمنهم من رأى فيه ملكاً مهيباً، لم ير الناس مثل أيامه في الخصب والرخاء، ومنهم من وصفه "بناصر الدين (الصفدي، 2000، ص 73-75)، ومنهم من وجده مؤيداً من الله تعالى، أقام بسيفه علم الإسلام ورفع، وقهر الكفر والطغيان، وتشدد في حدود الدين في مناسبات كثيرة، وتتبع المنكرات بالقاهرة وغيرها، وعاقب مرتكبيها بصرامة وقوة". (الصفدي، 2000، ص 98) (سلام، 1971م، ص 26)

اهتم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالإعمار والبناء على كافة الأصعدة، فقد بنى القصور والقلاع، والجسور، والبيمارستانات، والمساجد، حتى إنه كان يهدم ما يراه غير مناسب، ويقوم بالبناء مكان الهدم، ويجمع من أجل إتمام الإعمار، الصنّاع والعمال والآلات، وتبذل الأموال كثيراً، ويحتفل بعدها بإكمال البناء (ابن حبيب، ص 2)، كذلك اعتنى الناصر كثيراً ببناء المدارس، وتجهيزها، والوقف عليها، ويعد المقريزي المدارس التي عمل الناصر على إنشائها، فيجدها ثلاثاً وسبعين مدرسة (المقريزي، 1442م، ص 24-33)، وإيضاً يصوره الصفدي محباً للعمارة، عاملاً مجهد، باذلاً الأموال الكثيرة في البناء والتعمير حتى بلغت النفقات في العمارة كل يوم ألفي درهم (الصفدي، 2000، ص 98)، وتغنى الشعراء بكرمه وعظائه، ومدحوه فضوره بالغيث والندى، يده مبسوطة، امام الوافدين عليه، ومن حوله. (الخلي، 1962م، ص 96)

وكانت علاقة السلطان مع الرعية جيدة حسنة حيث يظهر في صفحات التاريخ، حب الناس له، واحترامهم إياه، والوقوف إلى جانبه في محنه ضد أعدائه، فقد وجدوا فيه محللاً، خاصة في بداية حكمه، أما بعدما أستقر في السلطة، فبدأ يعاقب من حوله، ويقتص منهم فظهرت صورته السلبية، وشعر الناس بالظلم، وأدركوا حب الناصر لمصلحته وحرصه على دوام سلطته. (المقريزي، 1442م، ص 21)

اتّصف الملك الناصر بالشجاعة، فقد أشاد به المؤرخون قبل الأدياء فكانت أول جملة تُكتب عنه: "السلطان الأعظم"، "من أعظم ملوك الأتراك"، وقيل فيه أيضاً: "كان ملكاً عظيماً، دانت له البلاد، وأطاعته العباد¹". "يقول فيه الصفدي: "استقر في الملك، ولم يشهر في وجهه سلاح" (الصفدي، 2000، ص 73) (ابن حبيب، ص 323-324) (الدواداري، ص 352)

تجلت شجاعة السلطان الناصر محمد بن قلاوون في حربه مع التتار، وانتصاره عليهم انتصاراً أسعد الناس جميعاً، وأنطق الألسن المبدعة، لتبدأ برسم أجمل صور الشجاعة التي ظهرت فيه، أو التي تمتأها المسلمون لبطلهم التاريخي، كما تجلّت صورة الشجاعة عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون في إرساء قواعد دولته، وتأمين حدودها، وتدعيم أركانها، وجعلها ذات وضع سياسي متميز بين الدول في تلك الفترة . يقول فيه اليوسفي : " إن الناصر محمداً كان بمثابة النموذج الأمثل لرجل الدولة". (اليوسفي، 1406هـ، ص99)

صور لنا التاريخ علاقة وهيبة السلطان محمد بن قلاوون بين الملوك، وأمراء الدول المجاورة، فظهر ذا عظمة وقدرٍ كبيرين، حتى دانت له ملوك الأطراف، أصدقاء وأعداء، يقول فيه الصفدي : "دانت له ملوك الأرض، وهادته الفرنج والتتار، وسالمة حتى زنج الليل وروم التّهار ". (الصفدي، 2000، ص74)

وتراوحت علاقة السلطان مع غيره، بين علاقة ود ومحبة ومهاداة، وعلاقة هيبة وخوفٍ ومسالمة، فهذا الصفدي يصوره وقد عظّمته الملوك وخافته، يقول : "دانت له الملوك، وأذعنّت له الرعايا.... وكان ملوك الأطراف يهادونه، ويعظّمونه ويخافونه"، ويقول أيضاً فيه : "وكان كتابه ينفذ حيث توجه". (الصفدي، 2000، ص96-97)

"سعى سلاطين المماليك إلى المحافظة على الدين، بشئى الوسائل، وذلك أنهم أحسوا دائماً بأنهم أغراب عن البلاد وأهلها، وبأنهم في حاجة إلى دعامة يستندون إليها في حكمهم، ويستعينون بها على إرضاء الشعب، وطبيعي أنهم وجدوا هذه الدعامة في فئة العلماء، بحكم ما للدين ورجاله، من قوة وسطوة في النفوس" (حسب الله، 1426هـ، ص27)، لذلك حرص الناصر محمد على تمثّل الدين، في كل موقف وأمر من أمور السلطنة، مما جعل الأدب يصوره بصور دينية متعددة، فكان عند كثير ممن ترجموا له "ناصر الدين"، كما قال الصفدي فيه : "السلطان الأعظم، الملك الناصر، ناصر الدين، ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين الصالحي" (الصفدي، 2000، ص73)، وهذه الصورة مستمدة من التراث حيث كان الشعراء يضمنون مدح الخلفاء والأشراف بعض النعوت الدينية. (موسى باشا، 1967م، ص462)

وأظهر آخرون صورة تدينه، مثبتين هذه الصورة، بما قام به من أعمال، تعود على الإسلام والمسلمين، بالخير والنفعة، ويثاب عليها السلطان من الله تعالى، ويتحدث المقرئ عن حرص السلطان الناصر محمد، على تعليم ممالئكه القرآن الكريم، وأمور الدين، من أول يوم يستلمهم فيه من التجار، يقول : "أول ما يبدأ به تعليم المملوك ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، ومعرفة الخطّ، والتّمرن بأداب الشريعة، وملازمة الصلوات والأذكار، وكان الرسم أن لا تجلب التجار إلا المماليك الصغار، حتى ينشئه السلطان كما يريد". (المقرئ، 1968، ص213)

ومن مظاهر تدينه، وحرصه على اتباع الشرع، والابتعاد عن الشبهات ما ذكره عنه اليوسفي، قائلاً : "كره السلطان الناصر محمد بن قلاوون المنجمين والسحرة، وكره مهنتهم، فسمع عن رجل منجم حضر، فطلبه السلطان، وأوقفه قدامه، ورسم بقتله، فقتل في حبسه". (اليوسفي، 1406هـ، ص339-340)

وتذكر المصادر الكثير من الحوادث الدالة على مقت السلطان شرب الخمر، وإنكاره ذلك أشد الإنكار، فكان إذا سمع عن أحد شرب الخمر، عاقبه أشد العقاب، ولو كان من أجلّ المقربين إليه (ابن حجر، 1386هـ، ص131) (المقرئ، 1968م، ص14)، وكذلك يضرب رقبة كل شخص يعرف عنه الكفر والزندقة والتلاعب بالدين (ابن حبيب، 1976م، ص401، 160) و مراعاته أحكام الإسلام، وتقديم مصلحة المسلمين وحرصه على تولية من يعرف الشرع والأحكام، في المناصب الحساسة فهو لم يقبل شفاعاة بعض الأمراء المقربين،

لدعم مرشح غير كُفُو لمنصب الحسبة، وقد دفعهم بقوله : "هذا المنصب، منصب كبير، ما يمكن أن يكون فيه، إلا من يعرف الشرع والأحكام". (البوسفي، 1406هـ، ص 80)

وعن حرص السلطان على أداء فريضة الحج، التي هي ركن من أركان الإسلام، ذكرت المصادر مداومة السلطان على أداء هذه الفريضة، وصورته طائفاً حول الكعبة، متجهاً إلى ربه يدعو بكلّ خضوع، فمن أقواله : "لا زِلْتُ أُعْظِمُ نفسي، إلى أن رأيت الكعبة، وذكرْتُ بوس الناس الأرض لي، فدَخَلْتُ في قلبي مهابةً عظيمة، مازالت حتى سجدتُ الله تعالى". وحسن له بدر الدين محمد بن جماعة أن يطوف ركباً، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له : "ومن أنا حتى أتشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم، والله لا طُفْتُ إلا كما يطوف الناس". ومنع السلطان الحجاب من منع الناس أن يطوفوا معه، وصاروا يزارحونه ويزاحمهم في مدة طوافه وفي تقييله للحجر². (المقريزي، 1968م، ص 197)

أحس الناصر بالمرض ولكنه تحامل على نفسه وخرج لصلاة العيد وطلب من قاضي القضاة "عز الدين بن جماعة" أن يوجز في خطبته. ثم صلى وغادر المسجد إلى القلعة قبل انتهاء الخطبة. وفي اليوم التالي طلب ابنه "أبا بكر" وعهد إليه السلطنة من بعده وأوصاه بالأمرأ وأوصى الأمرأ به، وحلف الأمرأ والخاصكية. وبعد يومين، يوم الخميس 20 ذي الحجة سنة (741 هـ / 1341م) توفي الملك الناصر بالقاهرة وهو في نحو الثامنة والخمسين بعد أن حكم البلاد ثلاث واربعون سنة وثمانية أشهر وتسعة أيام (ويكيبيديا، 2021م)

4. جهود السلطان الناصر محمد بن قلاوون في عمارة بيت المقدس وقبة الصخرة المشرفة

قام السلطان الناصر محمد قلاوون بأعمال معمارية جليلة في مدينة القدس والحرم الشريف، فقد اجريت في عهده العديد من الإصلاحات والترميمات للأماكن الدينية، ويمكن تلخيص أهم أعمال إعمار السلطان الناصر محمد بن قلاوون في المسجد الأقصى ومسجد الصخرة المشرفة

1.4 إعمار الأورقة:

ففي سنة (707هـ/1307م) أمر الملك السلطان الناصر بإعمار بعض الأورقة في ساحة الحرم القدسي، وهي محكمة البناء وممتدة من جهة القبلة إلى جهة الشمال، وأولها عند باب الحرم المعروف بباب المغاربة وآخرها عند باب الغوانمة وكلها عمرت في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون في فترات مختلفة، وعلى النحو التالي:

- أ- الرواق الممتد من باب الناظر إلى قرب باب الغوانمة، عمّر سنة (707هـ/1307م).
- ب- الرواق الممتد من باب المغاربة إلى باب السلسلة، عمّر سنة (713هـ/1313م).

ج- الرواق الممتد مما يلي منارة باب السلسلة إلى قرب باب الناظر، وقد عمّر سنة (737هـ/1337م). (غوانمة، 1516م، ص 67-70)

2.4 إعمار المآذن:

في سنة (730هـ/1329م) تم إعمار مئذنة باب السلسلة التي تقع على الحد الغربي للحرم الشريف وتعرف باسم مئذنة الحكمة ، أو منارة الحكمة، وكذلك مئذنة باب الغوامة التي تقع على الرواق الشمالي للمسجد الأقصى المبارك في أقصى غربه قرب باب الغوامة المدعوة به، ويعود بناؤها الحالي إلى عهد السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين سنة (697هـ- 1297م)، إلا أن بعض الأثرين نص على أنها بنيت أصلاً في العصر الأموي ، كما جددت في عهد السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون سنة (730هـ- 1329م)، فسميت "منارة قلاوون"، كما سميت منارة السرايا لقربها من مبنى السرايا الواقع خارج المسجد الأقصى والذي اتخذ مقراً للحكم في العهد المملوكي، . (اسماعيل، 2019م)

تركزت أعمال الإعمار في مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى على الجوانب والنواحي الفنية والتزيينات الزخرفية بشكل ملحوظ ، فقد شهدت مدينة القدس حركة إعمار واسعة تنافس فيها الأمراء المماليك على إعمار وترميم وإصلاح المساجد التي تعرضت للخراب والتلف بفعل الزلازل وغيرها (الرباعي، 2011م، ص35)، فقام السلطان الناصر بتجديد وتذهيب قبة الصخرة الشريفة من الداخل، إضافة إلى تغطيتها وكسوتها من الخارج بألوان الرصاص، (مجبر الدين، 1999م، ص92) (الحنبلي، ص92) وهناك نص مكتوب يشير إلى أعمال الإعمار والتجديد نصح: "أمر بتجديد وتذهيب هذه القبة من القبة الفوقانية (الخارج) برصاص مولانا ظل الله في أرضه القائم بسنته وفرضه السلطان الناصر محمد بن عبد الملك المنصور سنة (718هـ/1318م)" ، ومثل هذا التجديد أجرى كذلك في قبة المسجد الأقصى المبارك، استعمل فيها التذهيب والرصاص، وتم استبدال الأخشاب التالفة بجديدة ، وفي سنة (729هـ/1328م) قام الناصر بكسوة واجهة صدر المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة المشرفة بأنواع الرخام، بالإضافة إلى تجديد الشبابيك بالحصى الممزوج بالزجاج الملون ، كما قام في سنة (731هـ/1330م) بفتح الشبابيك اللذين يقعان على جهتين اليمين والشمال من المحراب في مسجد قبة الصخرة، (الرباعي، 2011م، ص36) كما قام بإعمار آخر تمثل بوضع البلاط الرخامي في أرضيات صحن مسجد الصخرة المشرفة. (مجبر الدين، 1999م، ص270)

تميز عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالازدهار الفكري والحضاري، وكان محباً للعمارة، باذلاً الأموال الكثيرة في البناء والتعمير ، ولم يكن السلطان غافلاً عن دور العلماء، إذا كان يحترمهم ويعظمهم، وكان ملكاً مهيباً عارفاً بالأمور، يعظم أهل العلم والمناصب الشرعية ، ومن الأمثلة على احترامه العلماء ما حدث بينه وبين الإمام ابن تيمية عندما أراد بعض حاشيته الإيقاع بينهم ، فقد وصلت السلطان وشاية كاذبة عن الإمام، فأحضره بين يديه ، قال من جملة كلامه: " أنني أخبرتك أنك قد أطاعك الناس، وأن نفسك في أخذ الملك " رد عليه الإمام قائلاً: "أنا أفعل ذلك؟! والله أن ملكك، وملك المغل لا يساوي عندي فلسين " فتبسم السلطان لذلك قائلاً: " إنك والله لصادق فإن الذي وشى بك لكاذب ". (الكرمي، 1986م، ص 98)

وفي عهد السلطان الناصر شيدت الكثير من المؤسسات الفكرية والثقافية في مختلف أنحاء الدولة المملوكية ، وتجلت ال حياة الفكرية والثقافية في عهده من خلال الصورة التي نقلها المؤرخ المملوكي ابن أبيك الدوداري بما يلي : " وأما الخواص والرباطات والزوايا وكذلك المساجد فلا تحصى كثرة، وجميع هذه الأماكن مشحونة بالأئمة والخطباء، والفقهاء والمدرسين والمحدثين والطلبة والمؤذنين والفقراء والمساكين ، وكل هؤلاء فله المقرر من سائر ما يحتاج إليه ، مما أوقف عليهم من البلاد والضياع والأملاك والخوانيت . ولهذا الأوقاف مباشرين وعمال وغير ذلك ، ولا بد لكلٍ منهم من أولاد وعائلة وأطفال وغلمان ودواب، والجميع يأكلون من إنعام الله و إنعام مولانا

السلطان عز نصره فليس فيهم من روح إلا وفيه حسنة ، و يدعو بدوام هذه الأيام التي كالأحلام ، أدام الله سلطانه إلى آخر الأبد".
(الدوداري، 1960م، ص391) وهذا النص دليل واضح لما وصلت إليه الدولة المملوكية في عهد السلطان الناصر من تطور فكري وحضاري،
فتنوعت المؤسسات الفكرية التي كانت عامرة بروادها العلماء و المتعلمين، ولم يخجل السلطان الناصر على الإنفاق عليها، وأوقف لها أوقافاً
كثيرة.

انعكست جهود السلطان الناصر على الحركة العلمية الثقافية في مدينة القدس بشكل مباشر، ففي عهده نالت المدينة نصيباً وافراً من
الاهتمام، فشهدت حركة عمرانية واسعة، وشيدت العديد من المؤسسات الفكرية والثقافية. (مجير الدين، 1999م، ص92)
ومن جهود السلطان الناصر في الحركة الفكرية و الثقافية في مدينة القدس ما يلي:

- في عهده شهدت مدينة القدس حركة عمرانية واسعة، كان لها لأثر الكبير في التقدم الفكري و الحضاري ، وقد وصف صاحب الأناضول
الجليل جهود السلطان الناصر بما يلي " : كان للملك الناصر بالمسجد الأقصى خيرات كثيرة منها أنه عمر في أيامه السور القبلي
الذي عند محراب داود عليه الصلاة والسلام ورخم صدر المسجد الأقصى بإشارة تنكر (الصفدي، 2000م، ص11) نائب الشام وفتح
بالمسجد الأقصى الشباكين اللذين عن يمين المحراب وشماله وكان فتحهما في سنة (731 هـ / 1330م)، وجدد تذهيب القبتين قبة
المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وعمر القناطر على الدرجتين الشماليتين بصحن الصخرة التي أحدهما مقابل باب حطة والأخرى
مقابل باب الدويدارية وعمر باب القطنين بالبناء المحكم ، وكل مكان من هذه الأماكن مكتوب عليه تاريخ عمارته ". (مجير الدين
، 1999م، ص92)

- بناء المدارس : في عهده شهدت القدس بناء العديد من المدارس منها : المدرسة السلامية سنة (701 هـ / 1301م) ، و المدرسة
الوجيهية سنة (701 هـ / 1301م)، (مجير الدين، 1999م، ص42) والمدرسة الجاولية سنة (715 هـ / 1315م)، (مجير الدين
، 1999م، ص38) والمدرسة الكريمة سنة (718 هـ / 1318م) ، (مجير الدين ، 1999م، ص39) والمدرسة التنكزية سنة (729 هـ
/ 1329م)، (مجير الدين ، 1999م، ص35) والمدرسة الأمينية سنة (730 هـ / 1330م) ، (مجير الدين ، 1999م، ص39) و المدرسة الملكية
سنة (741 هـ / 1341م). (مجير الدين ، 1999م، ص38)

- بناء قناة السبيل : في سنة (727 هـ / 1327م)، قل الماء في القدس حتى بلغ شرب الفرس مرة واحدة نصف درهم فضة،
(المقريزي، 1968م، ص102) فأمر السلطان الناصر محمد ، نائب الشام تنكز بتعمير قناة السبيل، الذي باشر في عمارتها في شوال
سنة (727 هـ / 1327م)، ووصلت إلى القدس الشريف ودخلت إلى وسط المسجد الأقصى في أواخر ربيع الأول
سنة (728 هـ / 1328م) ، (الصفدي، 2000م، ص120) وفي السنة نفسها قام تنكز بإنشاء البركة الرخامية، التي تقع بين قبة الصخرة
والمسجد الأقصى، (مجير الدين، 1999م، ص35) و تعرف تلك البركة في يومنا هذا بالكأس. (العارف، 1999م، ص204)

- بناء سوق القطنين المعروف بخان تنكز نسبة لبانيه الأمير سيف الدين تنكز الناصر، (في سنة (733 هـ / 1337م)، الذي يقع
غرب الحرم، (العارف، ص204) وأقام فيه حمامين سنة (733 هـ / 1337م)، هما : حمام الشفاء الذي يقع داخل سوق القطنين من

- الجهة الشرقية، وحمام العين الذي يقع داخل سوق القطانين من الجهة الغربية، وقد وقف ريع هذه السوق لترميم أبنية في المسجد الأقصى. (الصفدي، 2000م، ص262)
- وفي عهده كتب سلطان المغرب أبو الحسن المريني (ابن الخطيب، 2003م، ص282) ثلاثة مصاحف بخطه، وأرسلها إلى المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، وأوقف عليها أوقافاً جلية، (المقري، 1968م، ص399) وجهاز معها عشرة آلاف دينار اشترى بها أملاكاً بالشام، ووقفت على القراء والخزنة للمصاحف المذكورة، (أبو الفداء، ص149) وقد قال صاحب نفتح الطيب عن مصحف بيت لمقدس: " رأيت أ حد المصاحف المذكورة وهو الذي ببيت المقدس وربعته في غاية الصنعة". (المقري، ص400)
 - رباط النساء: لم يتجاهل أمراء المماليك في الشام دور المرأة الفكري و الثقافي في مدينة القدس، ففي عهد السلطان الناصر محمد قام نائب الشام تنكز ببناء رباطاً خاصاً بالنساء بجوار المدرسة التنكزية، وكتب تنكز حجة وقفية لهذا الرباط. (العسلي، 1985م، ص114)
 - في سنة (710هـ/1310م)، أمر السلطان الناصر محمد ببناء الجامع داخل القلعة عند زاويتها الجنوبية الغربية، وقد كُتب على بابه بالخط النسخ المملوكي الكلمات التالية: " بسم الله الرحمن الرحيم، أنشأ هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا و الدين محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدين و الدنيا قلاوون أعز الله نصره في تاريخ سنة عشرة وسبعمائة، حسبنا الله و نعم الوكيل". (العارف، ص202)
 - وفي عهده تم إعادة بناء و توسيع الخانقاة الصلاحية، وفي سنة (741هـ/1340م)، تم بناء طابق ثانٍ للخانقاة يشمل على مسجد و غرف للسكن ومرافق عامة، (نجم، 1983م، ص1) و على الحائط القبلي للخانقاة نقش كتابي على لوح رخامي جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، أشار بإنشاء هذا المحراب وعمارة المجمع المبارك الفقير عيسى بن أحمد بن غانم، عفى الله عنه ورحم سلفه، في أيام مولانا السلطان محمد ابن قلاوون عز الله نصره، سنة إحدى وأربعين وسبعمئة". (العارف، 1999م، ص205)
- والجدير بالذكر أن الناصر محمد بن قلاوون كان أكثر سلاطين المماليك عناية بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة، حيث شهدت مدينة القدس في عهده نهضة حضارية وعمرانية لم تشهدها في عهد أي سلطان آخر غيره.

من خلال هذه الدراسة تبين أن الحياة الفكرية والثقافية في مدينة القدس في العهد المملوكي شهدت تقدماً كبيراً في مختلف مجالاتها، بل يمكن القول بأنها بلغت كمالها في تلك الفترة؛ مما ترك آثاراً عظيمة في ازدهار الحركة الفكرية والثقافية، التي نشطت بشكل واضح في المدينة في تلك الفترة، وأصبحت المؤسسات التعليمية المختلفة عامرة بالعلم وأهله من العلماء والمتعلمين، وتنوعت العلوم، وغدت المدينة مقصداً للعلماء وطلبة العلم، الذين وفدوا إليها من المشرق والمغرب . ويمكن القول أن النضج الفكري والثقافي لمدينة القدس قد بلغ كماله في العهد المملوكي.

2.5 النتائج:

أبرز نتائج البحث التي توصل إليها الباحث على مايلي:

- أسهم سلاطين المماليك في تقدم الحياة الفكرية والثقافية، من خلال تقديمهم الدعم اللازم من بناء المؤسسات الفكرية والثقافية، والإنفاق عليها.
- شارك أمراء وقادة الأجهزة الإدارية في دولة المماليك في الحياة الفكرية والثقافية من خلال بناء المؤسسات الفكرية المختلفة التي حملت أسماءهم والأوقاف عليها.
- شهدت القدس في العصر المملوكي حركة واسعة في بناء المدارس، فقد تم بناء العشرات، وهذا يدل على كثرة المعلمين وطلبة العلم في تلك الفترة.
- لعب المسجد الأقصى دوراً بارزاً في الحياة الفكرية والثقافية، وشكل النواة الأولى لها، فتنوعت مظاهر الفكر والثقافة فيه .
- كان المسجد الأقصى محل اهتمام سلاطين المماليك، من حيث الإعمار والإنفاق ومتابعة شؤونه وأوقافه .

3.5 التوصيات :

- إن ما تمر به المدينة المقدسة وتراثها الحضاري من هجمة صهيونية شرسة تهدف إلى طمسه، وإلغاء دور المس لمين الحضاري على يد الصهاينة، يتطلب تضافر الجهود لحمايته، لذا يوصي الباحث بـ :
- 1- أن يهتم المتخصصون والباحثون بدراسة الحياة بمختلف جوانبها في القدس في عهود مختلفة، وخاصة العهد العثماني، الذي شهد بداية الأطماع الاستعمارية في المدينة.
 - 2- أن تعمل الجهات الرسمية وخاصة وزارتي الأوقاف، والتربية والتعليم، على دعم فكرة إحياء دور مساطب العلم في ساحات المسجد الأقصى.
 - 3- أن تعمل الجهات المختصة على دعم المؤسسات المختصة بالمدينة المقدسة مثل مؤسسة الأقصى للوقف والتراث، ومؤسسة القدس الدولية.

6. قائمة المصادر و المراجع

1.6 المصادر:

- ابن الخطيب، محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني. (1424هـ / 2003م). الإحاطة في أخبار غرناطة تحقيق: يوسف علي الطويل، بيروت: دار الكتب العلمية . ط1،.
- ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر. (1976م). تذكرة النبيه. تحقيق: محمد محمد أمين. جامعة القاهرة: مطبعة دار الكتب.
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي. (1386هـ). الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. تحقيق: محمد سيد جاد الحق ، القاهرة: دار الكتب الحديثة.
- الحلبي، صفى الدين. (1962م). الديوان. بيروت: دار صادر للطباعة والنشر.
- الدوداري، عبد الله بن أيك. (1379هـ/ 1960م). كنز الدرر و جامع الغرر (الجزء التاسع هو : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر) ، تحقيق : هانس روبرت رومر، القاهرة: قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيك. (1418هـ). أعيان العصر وأعوان النصر . حققه: د.علي أبو زيد، و د.نبيل أبو عمشة، ود.محمد موعد، و د.محمد سالم محمد، قدم له: مازن عبد القادر المبارك، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط 1. الوافي بالوفيات. (1420هـ / 200م). تحقيق: أحمد الأرناؤوط ، بيروت: دار إحياء التراث.
- العارف، عارف. (1420هـ/ 1999م). المفصل في تاريخ القدس. القدس: مكتبة الأندلس، ط5.
- العسقلاني، شافع بن علي المصري. (1998م). الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور . تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت: المكتبة العصرية.
- العيني، بدر الدين محمود. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل. المختصر في أخبار البشر ، بيروت: دار المعرفة.
- الكرمي، مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي. (1406هـ / 1986م). الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية تحقيق : نجم عبد الرحمن خلف، بيروت: دار الغرب الاسلامي، ط1.

- مجير الدين، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي. (1420هـ / 1999م). الجليل بتاريخ القدس والخليل . تحقيق : عدنان يونس نباتة، عمان: مكتبة دنديس .
- المقري، أحمد بن محمد القري التلمساني. (1388هـ / 1968م). نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار الصادر.
- المقرئزي، أحمد بن علي. (1390هـ). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. المعروف بالخطط المقرئزية، طبعة جديدة بالأوفست، مؤسسة الحلبي وشركاه. السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه: محمد مصطفى زيادة، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى. (1406هـ). نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر . تحقيق ودراسة: أحمد حطيط، بيروت: عالم الكتب.

2.6 المراجع:

- الكتب :

- بهاء، حسب الله. (1426هـ). في الأدب المملوكي، الإسكندرية: دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر، ط1.
- خليل، عثمانه. (2001م). فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي. مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط6.
- الرباعي، احسان عرسان. (1432هـ/2011م). العمارة الإسلامية في الحرم القدسي الشريف في العصر المملوكي منذ العصر المملوكي حتى الإعمار الهاشمي المعاصر (1250-1994م)، عمان: الأكاديميون للنشر والتوزيع، ط1.
- زكار، سهيل . (1990م). "فلسطين في عهد المماليك من أواسط القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي إلى مطلع القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي" في الموسوعة الفلسطينية، بيروت.
- العروسي المطوي، محمد. (1982م). الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط2.
- العسلي، كامل جميل. (1405هـ/1985م). وثائق مقدسية تاريخية (ت1416هـ/1995م)، عمان- الأردن: مؤسسة عبد الحميد شومان.
- علي، علي السيد، (1980م). القدس في العصر المملوكي، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع.
- عمر، موسى باشا. (1967م). أدب الدول المتتابعة عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، دار الفكر العربي، ط1.

- غوامة، يوسف ، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر الوسيط(1253-1516م)، تونس: الدار التونسية.
- نجم،رائف يوسف، عبد المهدي، عبد الجليل، الحلاق، بسام، التنتشة، يوسف سعيد، (1404هـ/1983م). كنوز القدس، عمان: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية.

- الاطروحات والرسائل الجامعية :

- سلطنة بنت ملاح الرويلي. (1428هـ). تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي ، تأليف شمس الدين الشجاعى (ت745هـ/1344م). دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر خريسات، الجامعة الاردنية .

- المواقع الالكترونية :

- علي، علي السيد،(1970م)،القدس في العصر المملوكي، الرابط: <http://palscholars.com/post/2751>
- ويكيبيديا،(2021م)، الناصر محمد بن قلاوون، الرابط: <https://ar.wikipedia.org/w/index.php?title>
- اسماعيل، ممدوح،(2019م)، الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر الذى قهر العسكر، الرابط: <https://www.aljazeera.net/blogs/>